قدر الإنسان التعيس

بقلم محيي الدين صبحي

« انني أومن بأنه لا وجود تجاه العقل والقلب ، المخلوقين من نداءات لا تفنى ، الا لسراب ما يناديان به .

« انني أومن بأنه لا توجد حولنا في جميع الجهات ، الا كلمة واحدة هي تلك الكلمة اللامحدودة ، التي تبرز وحدتنا وتعري اشعاعنا : لا شيء .

« انني أومن بأن هذه الكلمة ـ لا شيء ـ لا تعني عدمنا ولا تعاستنا، بل تعني ـ على العكس ـ تألهنا وتحققنا ، ما دام كل شيء فينا » .

بهذه الكلمات يختم هنري باربوس روايته المذهلة «الجحيم» (١) . وهي تكثيف لكل اقتحامات القلب الغربي للمجهول ، مزودا بالطريقة العلمية ، بدلا من الطريقة الصرفية .

وفي كلتا الطريقتين ـ الاستقرائية العلمية الغربية ،والطريقة الصوفية الحدسية الشرقية ـ يلامس قلب الانسان حدود المجهول . ويتساءل عن معنى الحياة وسر الالم ودواعي المعاناة ، ثم يذعر حيال المرض والهرم والموت ، ويفغر فاه بصيحة مبحوحة تجاه المصير .

ان الانسان مخلوق متصل باللانهاية . والجهد الانساني بأكمله ليس سوى محاولة لتحديد غير المحدد ، وتقييد اللانهائي . فالانسان قد أعطى للانهائي أشكالا ، ثم وجدها لا تشفي له غليلا فحطمها : لقد قيد الحب بالرغبة ، والرؤيا بالفن ، والطاقة بالعلم . ثم وجد ان كل ما فعله باطل لان المجهول ظل مجهولا ولان المصير غامض واللانهائي ما زال في قلبه سديما لا ينحصر في اطار . فوجد ان عليه معاودة البحث في قلبه من جديد ، على اعتبار ان البحث خارج الوجود الانساني عن حل لمشكلة الانسان ليس سوى تأمل في فراغ .

فاذا آمنا بأن اللانهائي موصول بالقلب بحبل سري ، امتلأنا ثقة بالانسان كمصدر للقيم ، وعزفنا عن البحث خارج النفس البشرية ، ان ما حولنا من مخلوقات واكوان ليس شيئا . وان ما فينا من توق لا نهائي هو كل شيء . وما دمنا نحن كل شيء في هذا الوجود فيجب أن تزيد ثقتنا بأنفسنا ، أي أن يزيد ايماننا بالانسان وقدرته وانجازاته دون الرجوع الى قوة عليا ، ودون انتظار يد فوق الانسان تنقذه من شرط وجوده ـ ان كون الانسان وحيدا في هذه الحياة لا يعني أن يشعر بالتعاسة ولا بالعبث ولا بالعدمية ، وانما يجب أن يزيد ذلك من قدرته على الخلق والابتكار وتحقيق العدالة والسلام على هذه الارض . اذ ما دام هذا هو مصيرنا الوحيد على هذه الارض ، فيجب أن نحسن صنع هذا المصير وتوجيهه .

وهنري باربوس من كبار المثقفين الانسانيين الذين بذلوا عنايتهم ومحبتهم لقبول التراث الانساني ، وجني أحلى ثمار الفكر الغربي بحكمته وثقافته ، كما انه من الذين وثقوا بالانسان ، عقله وعلمه ومكاسبه ومستقبله ، وآمنوا بقيمة التضامن الانساني والجهد . وهو على الاجمال من المفكرين المتفائلين الذين يبشرون بمستقبل تسوده نزعة انسانية خيرة في شكل ديمقراطي واشتراكي .

وقد استطاع باربوس بحسه المأساوي ونظرته الشمولية، أن يعرض علينا مفهوماته عن الحياة والتجربة الفنية ، في رواية « الجحيم » ، بنبض ودفء قلّ لهما مثيل . فبطل رواية « الجحيم » شاب يقيم في فندق ، ومن ثقب غرفته يتاح له أن يطلع على ما يجري في الغرفة المجاورة . وهو بهذا الوضع الذي يستطيع فيه أن يرى كل شيء دون أن يراه أحد ، يفاجيء الاشياء وهي تحدث كما هي . انه يتمكن من أن يطلع على ما يفعله البشر في خلواتهم . ومن وراء معرفته بأسرار البشر، يعرف أسرار الحياة البشرية بأكملها .

ويكون بهذا الوضع واقفا فوق البشرية ، فهو بين الكائنات ، ومنها ، ومنفصل عنها في آن واحد . وبذلك يرى ما لا يراه الناس حين يكونون في غمرة الحياة ، ويعرف كيف تنقلب الابتسامة احتضارا ، وكيف يصبح الفرح شبعا وينحل العناق وتتراخى الايدي المشتاقة .

كل ذلك يعرضه علينا باربوس في قصتين رئيسيتين في الرواية ، وعبر آلاف الملاحظات الذكية والقصص الجزئية . واحدى هاتين القصتين تقص علينا حكاية الفرح والحب والشعر واللذة والحيرة ، أما الاخرى فتروي ما تبقى ...

والمعجز في كل ذلك ان المؤلف استطاع أن يصور كل هذه المشاهد ومعها مشاعر البطل أيضا ، من خلال هذا الثقب ، دون ان يقع في حيّز الروح المسرحية ـ باعتبار ان مكان الاحداث واحد ـ ودون ان تطغى الاحداث على شخصيات الابطال . فقد وردت هذه الشخصيات واضحة الصفات والخصائص . حتى لنكاد نسمع الشيخ المحتضر وهو يناقش القس ، ونتملى من لهجة الشاعر وهو ينشد قصائده ، ونسمع تنهد ايميه وهي تشكو للشاعر فراغ أيامها مع زوجها ، وتقول لحبيبها الشاعر :

« لم يكن يحدث لي شيء . كانت حياتي ميتة بيد انه كان عليّ أن أحياها . لم يكن من الممكن ان تدوم هذه الحال . لم أكن أستطيع

(١) من ترجمة جورج طرابيشي ، منشورات دار الآداب ـ بيروت.

أن أكره ، لمدة طويلة ، الرتابة والعادة . ولم يكن الايمان يشفيني : فأنت لا تملأ فراغ أيامك بالدين ، بل بحياتك الخاصة .

« عندئذ وجدته .. وجدته ذلك الدواء :

« الشر . الشر ! الجريمة ضد السأم . الخيانة لتحطيم العادة . الشر لأكره الحياة أكثر مما تكرهني . الشر ، كي لا أموت !

« وحين استوت علاقتنا حمدت لنفسي انها تمردت ومزقت قدري . لقد أصبحت أتذوق الاخطار التي تهب الساعات طعمها ، والتعقيدات التي تغني الحياة . .

« والآن ، اعلم جيدا انني أحببت نفسي معك ، وكذلك أنت . ان عندك ميلا ليس عندي ، ما دمت لا أحس باللذة . وكما نرى ، نحن نعقد مساومة : فاحدنا يمنح الآخر احلاما ، والثاني متعة » .

وهكذا ، حلت ايميه مشكلة الرتابة ، بالخيانة الزوجية وما يعقبها من مخاوف وهواجس ، ترى فيها ايميه غناء لحياتها ومتعة ، ما دامت تضع الجريمة ضد الرتابة . لكنها مع ذلك ، تعلم ان المرء لا يخرج من ذاته ، حتى في أنقى حب في العالم ، لذلك سرعان ما تكتشف المساومة وتفرها . اما نحن فنعلم ان ما يجمع بين هذين الكائنين ليس الحب ، بل كان الرجل يندفع نحوها بسبب رغبته فيها ، وكانت هي تقبل عليه بسبب حاجتها للانفلات من حياتها . لكنها لا تلبث في موقف آخر ان تقول :

« ما الفائدة ؟ لا شيء مجد . انني وحيدة بالرغم مما حاولت أن افعله . فليس بالشر نتوصل الى السعادة ، ولا بالفضيلة . اننا لا نتوصل اليها البتة . ان أفكارنا ، كبيرها وصغيرها ، ليست الا لنا . كل شيء يرجعنا الى أنفسنا ويحكم علينا بأن نعيش وحيدين . ان الحب شيء جنوني دوما ، وأي عاشقين يعيشان معا يظلان غريبين » .

واذ تكون في فترة الكآبة هذه ، تفقد سيطرتها وتستسلم لعشيقها ، الذي يقول لها منكسرا بعد ان ينتهي :

ـ لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من ذلك . انه لقدر !!

أما بطل الرواية ـ الذي لا نعرف اسمه والذي يشاهد الحوار والعملية من الثقب ـ فانه حين يرى الرجل يشيح بوجهه عن المرأة بعد أن ينتهي منها ، يصيح مذعورا :

« أين الله ؟ لم لا يتدخل في الازمة الفظيعة المتكررة ؟ لم لا يمنع بمعجزة ، المعجزة الرهيبة التي يصبح بها ما هو معبود ، مكروها بسرعة او ببطء ؟ لم يحفظ الرجل من الموت الهادىء لكل احلامه ، ولم لا يحفظه أيضا من كآبة هذه اللذة التي تبزغ من جسده ، وتهوي عليه بعد ذلك كبصقة ؟

« هذان العاشقان ، سيبحثان من جديد عن عزاء ، خلال جسديهما المتلاصقين ... سيستولي عليهما من جديد التوتر العظيم المميت وقوة الخطيئة المتشبثة بالجسد كمزقة من الجسد .

« وستخيف انطلاقة حلمهما وعبقرية رغبتهما الانفصال من جديد ، وتلقي حوله الشك ، وتسمو بالدناءة ، وتبطر القذارة وتطهر أكثر أجزاء جسميهما لعنة وظلمة . هذه الاجزاء التي تؤدي أيضا الوظائف الملعونة وتصعب عليها لهنيهة كل عزاء العالم .

ثم حين يتبينان انهما قد قيدا ، بلا جدوى ، اللامتناهي بالرغبة ، سيعاقبان من جديد ، دوما من جديد ، على عظمتهما » .

وهكذا نجد أنفسنا ـ ونحن في ذروة الموقف الدرامي ـ تجاه وحدة النفس الانسانية وانغلاقها على ذاتها ، وخيبة أملها في الحب ، وفشل الجنس في أن يستهلك غير توتر اللحظة الحاضرة ، وذعر الشاهد « المتفرج » من الشرط المفروض على وجود الانسان . لذلك فان ايميه تبكي وحدتها ، والشاعر يشيح بوجهه فرارا من أية مواجهة . والعاشقان في موقفهما هذا ، ينظران الى أبعد من الجسد ومن الفعل المنقضي ، بكلامهما على هذا النحو . انهما يرزحان تحت عبء احساس بحقيقة قاحلة ، وهما يفكران بأنهما قد حققا ورفضا وعادا أكثر من مرة ، عبثا ، الى مثلهما الاعلى الجسدي الهش . وهذا ما يجعل للحادث ووصفه طبيعتين مصيريتين ، ويربط الجسد بالتوق الانساني اللانهاية ، وليس بالافرازات الوقتية للهرمونات .

ان العاشقين يشعران بأن كل شيء يمر ، يهترىء ، ينتهي ، وان الروابط بينهما ليست دائمة . فالتوتر الشديد الذي أثاره الحب في حياتيهما بدأ يتراخى ، وتنحل قبضته عنهما شيئا فشيئا ، لذلك تسقط من فم ايميه صيحة احتضار ، وهي الى جانب الشاعر :

ـ آواه ! حبنا الكبير . حبنا العظيم . انني أسلوه شيئا فشيئا .

لكن هذا ليس كل ما في الامر . ان لدى ايميه شعورا آخر . ينبع من صميم عزلتها ويتصل بصميم ذاتها ، ويزيدها يقينا بأنها وحيدة متفردة ، بالرغم من ان حبيبها قربها ، وصلاتها كثيرة :

« ـ هوذا الفرح : انه الزمن الذي يمر ويغيرنا . انني أشيخ . لقد خالطت شعري بضع شعرات بيض ، وسوف تتلوها شبكة تجاعيد ، ثم بلاط القبر . الموت في كل مكان : في قبح ما كان جميلا مدة طويلة ، في قذارة ما كان نقيا صافيا ، في عقاب الوجوه التي كانت غزيرة ، في نسيان ما هو بعيد . اننا نلمح الحياة لمحا . وليس ثمة وقت الا لرؤية الموت . سيأتي يوم لن يعود لي فيه وجود . انني أبكي لأنني سأموت حتما .

« أنت تعرف حق المعرفة ان الارض تنتظر توابيتنا . وانها ستحصل عليها ، في وقت ليس ببعيد .

« ان الزمان أقسى من المكان . ان في المكان شيئا ما ميتا ، لكن الزمان فيه شيء مميت . أواه . أوقفه . أوقف الزمان الذي يمر ! لكنك لست الا رجلا مسكينا ، لست الا قليلا من الوجود والافكار التائهة في أعماق غرفة . واني لأسألك أن توقف الزمان .. أسألك أن تمنع الموت » .

كانت ايميه أشبه بحواء ، وهي تسأل آدم عن شجرة الخلد . وكانت مستعدة للتضحية بكل شيء خوفا من الموت .

وقد جاء آدم في الرواية على صورة شاعر ، وجاءت الرؤية الشعرية انقاذا للمرأة من أن تسقط في خطيئة اليأس ، قال لها الشاعر :

« ـ اسمعي ، لقد تخيلت مرة مخلوقين يشارفان خاتمة الحياة ، ويتذكران كل ما قد تألما منه . الرجل والمرأة مؤمنان ، وهما سعيدان بالموت لان الحياة حزينة ، ولانهما سيعودان الى الفردوس حيث البياض والنور ، ويغادران الحياة الارضية التي هي ظلام . اما هما فنورا يريدان وظلا كانا . وحين يتأكدان من الموت يحمدان الله . ويشرق فعل الحمد كالفجر . ويخطر لهما أثناء تضرعهما انهما يريدان ان يتعريا من ظلمة الحياة الارضية ، فيتذكران الولادة والالم والمرض والعمل المنهك وأولادهما الذين هجروهما بعد أن أحبوا . ولا يملك الزوجان الا أن ينظرا الى الحب الذي عاشاه مع العناء وقد مزجا به ـ طوال الليالي ـ الراحة مع الحنان . أما الحب فقد تلاشى ولم يعد مثيرا . ويتلامح الفردوس على الارض من خلل الآمال والانفعالات والصبوات التي تحجبها الدناءة الانسانية .

« لقد اشتهى الرجل كل شيء : مال الغير ومصير الغير والمجد والشهوة والجحيم . لكن المرأة تصرخ به : الام سنصير ؟ يا الهي . لا أريد السماء ! وماذا يفعل الله للبشر ؟

ويفرقان في وهدة اليأس ، لكنهما يتقاربان ويصنعان الحياة من جديد ، وهما أكثر انفعالا بتعرف أحدهما على الآخر من خلل الرغبة والذكريات . وهكذا تبلغ الحياة ذروة وجدها الكامل في الحياة الآفلة . ويصيح الرجل :

« ما أجمل أن يبلغ الانسان خاتمة أيامه » ...

ثم يتبادل اللذان لن يتألما بعد الآن وداعا رهيبا تنتهي عنده المأساة » .

وهنا تسأل ايميه شاعرها :

ـ لم لم تقل لي هذا كله حين سألتك ؟

فيجيبها :

ـ ما كنت تستطيعين أن تفهمي ذلك آنذاك . كنت قد غامرت بحملك المقبض في طريق لا منفذ له .

هذه هي الحقيقة : انها لا تمحو الموت ، انها لا تبطىء الزمان ، لكنها تجعل من هذا كله ، ومن الفكرة التي لنا عنه : العناصر الاساسية لذواتنا . ان السعادة بحاجة الى التعاسة ، والفرح متصل مع الحزن. وقلبنا يختلج بفضل تعليقنا على صليب الزمان والمكان .

ان القصيدة لم تغير واقع المصير الفردي ، لكنها علمت المرأة ـ وعلمتنا ـ الا نحلم بنوع من تجريد باطل ، بل علينا أن نحافظ على الرابطة التي تصلنا بالدم والارض .

ان السكينة التي ترين على المرأة بعد انشاء القصيدة برهان على ان الحياة تنتصر على التجريد ، كما تنتصر الرؤيا على الخوف . ان آدم وحواء ، والشاعر وعشيقته ، والرجل والمرأة ، يعانون من مشكلة واحدة : معنى الحياة وطعم الموت . وكلا الزوجين ينتصران على سؤال : الام سنصير ؟ لانهما يعلمان انهما سيصيران الى ما لم يكونا عليه قط ، ويكتشفان ان السعادة تعيسة لانها لا تظهر الا من خلال المعاناة في سبيل اتحاد اللانهائي في ضمير الانسان .

***

الى هذا الحد من الرواية ، والحب مشهد ، والشهوة مجسدة ، والرؤيا انشاد ، والخلوة نجوى ، والموت فكرة خاضعة للنقاش ، وأبطال الرواية أصحاء معافون لا همّ لهم سوى نزواتهم وتأملاتهم في أوصاب الحياة .

أما فيما تبقى من الرواية ، فيتم عرض بقية فصول الحياة الانسانية ، وما فيها من عذاب وكرب وصمت أبدي ، وتجدد وتناسل وتزايد وحب يسع الحزن والفرح والتوق والذكرى والنسيان والمرض والاحتضار . ان الكاتب يعرض علينا وجهي الحياة .

يشاهد البطل من خلال الثقب قوما يحلون في الغرفة المجاورة له : شيخ وامرأتان ، احداهما حامل والاخرى صبية جميلة . نتبين من حديث الكهل انه مثقف خمسيني ملأ حياته بالاسفار وفارق وطنه ولازم الصبية الجميلة التي كانت خادمة له ، فاستحالت العلاقة بينهما ـ بفضل تضحيتها وصبرها وصباها ـ الى حب صوفي ووجد عميق .

فجأة ، وبعد ان رأيناه حيا ، ممتلئا ذكريات وصبوة ، نعلم من حديثه انه مصاب بمرض قتّال . ففي حلقه سرطان قد بؤدي في كل ساعة الى القضاء عليه عن طريق انسداد مجرى الهواء . ويكون حضور طبيبين للكشف عليه فرصة يستغلها الشاهد ليسمع نقاشا اتسع بينهما حتى شمل كل اسباب الموت .

فهما يريان ان جرثومة السرطان مثل الحيوان المنوي ، عضوية لامتناهية الصغر وقابلة للتكاثر السريع . غير ان تكاثر الحيوان المنوي في الرحم تكاثر بنّاء ومنظم ومحدود ، أما التكاثر السرطاني فلا يقف عند حد ولا يتخذ أي شكل . ان السرطان هو الشيء اللامتناهي في عضويتنا . ولعل جرثومة الموت واحدة في كل الامراض : فجرثومة السل تحدث التدرن ، ومثلها جراثيم التيفوئيد وكل أنواع الخراجات . ولكن هذه النظرة التبسيطية التي توجد معنى الموت ذات المظاهر المتعددة لا تؤدي الى حل المشكلة . فالاصحاء يهرمون ، والهرم يؤدي الى الموت، والهرم ذو طبيعة حتمية ومجهولة . وفضلا عن كل هذه الشرور التي تحيط بالانسان ، يجب أن نتذكر الحروب والحوادث العديدة . حقا ان الموت في كل مكان !!

يخرج الطبيبان . ويدخل المريض الكهل المحكوم بالموت ، وهو يتحدث عن فن النحت والهندسة . وكيف ان واجب الفنانين اعادة صنع كل شيء ببصيرتهم العظيمة التي تساعدهم على الخروج عما هو طبيعي ومألوف .

في ليلة وفاة الكهل ، تضع الحامل حملها ، ويعقد الكهل قرانه على الصبية كي ترثه ، ويعترف لها بانه أحبها طويلا واشتهاها طويلا . وفيما يكون على سرير الاحتضار تتعرى أمامه ليملأ عينيه من محاسنها ، وتجلس أمامه : صبوة ليس لها تعبير . ويحدث الكهل صبيته عن طفولته وفتوته : لقد أحب في وطنه البعيد فتاة ونظم لها الاشعار ، فاجتاح المدينة وباء أودى بها ، وعندما ماتت أوصت ان تدفن بثياب العرس وأن يدفن معها ديوان الشعر الذي نظم من أجلها . لكن شهوة المجد دفعت به بعد ثلاث سنوات الى نبش القبر واسترجاع الديوان ..

ويا للفجيعة ، حين اكتشف ان القصائد ليست بالجودة التي كان يتصورها : لقد انتهك السر واستباح الحرمة في سبيل شهوة ظالمة وسراب مجد لم يتحقق .

بموت الكهل يفرق بطل « الجحيم » في غمار تصورات مظلمة عن المصير البشري : ان في بطن الارض أضعاف أضعاف ما عليها من الاحياء . وسوف يموت هو ، ويلتهم دود الارض جسمه . يرجع الى كتب العلم ويستعرض أدوار تفسخ الجثة وانواع الحشرات التي تتعاقب عليها ... ففي ثلاث سنوات يعود الجسم الى التراب ... التراب المكون من ذرات لا وزن لها ولا شكل ، ومع ذلك فهذه الذرات هي التي تؤلف الارض والكواكب والشمس ثم سائر الشموس في الافلاك التي لا نهاية لها والتي تمتد مع ذلك في فراغ كوني بلا نهاية يغلف كل شيء .

لانهايات متعددة تعددا لا نهاية له .. لانهايات في الكون من حيث عدد الذرات وعدد الافلاك وعدد الفانين وعدد الاحياء .. ولانهايات داخل الانسان الذي يحد الشوق بالرغبة ، والرؤيا بالشعر ، والطموح بالامتلاك .

ان العلم عاجز تماما عن فهم هذه اللانهايات والاحاطة بها ، بله السيطرة عليها . والدين يقين يمنح وجوده من مدى ايماننا به .

فما هو الشيء الاكيد ؟

اننا لا نستطيع أن ننفي فكرتنا عن العالم ، لكننا لا نستطيع أن نتيقن ان العالم موجود خارج فكرتنا عنه . ان ازلية العالم وأبديته كذبتان زائفتان ، لانني انا الذي أعطي الكون صفاته من خلالي ..

« انا افكر فانا اذن موجود » . ومن خلال افكاري يتخذ الوجود شكله الذي أراه عليه . ومن هنا تأتي حقيقة ان الانسان وحيد ، ولا شيء يخرجه عن عزلته . ان الانسان موجود داخل افكاره . وهو ـ حتى اذا اطلع على الحقيقة ـ لا يشعر بأي عزاء ، لانه يظل وحيدا مهجورا في جحيم الحقيقة .

ان بطل باربوس الذي كان شاهدا على الحياة الانسانية يغرق في النهاية في تعاسة وهموم ذاتية تسلط عليه الهواجس والكآبة كعقاب على جراته ، مثله في ذلك مثل بروميتوس الذي سرق النار من الالهة فسلط عليه عقاب ينهش كبده كل مساء .

لكن الانسان الذي أوتي القدرة على اكتشاف الحقيقة ، وهب ايضا الجراة على مجابهتها ، لذلك يقول بعد أحد المشاهد :

« آه ! لست

آسفا على انني انتهكت السر البسيط الرهيب . ربما سيكون مجدي الوحيد ، انني عانقت هذا المشهد بكل مداه ، وفهمت منه ان الحقيقة الحية أعظم حزنا وسموا مما كان بمقدرتي حتى الآن أن اظن » .

وكفى ذلك فخرا للكاتب او للانسان العادي .

محيي الدين صبحي